[١١٢ – عن البراء بن عازبٍ – رضي الله عنه –: أن النبي ﷺ كان في سفرٍ، فصلى العشاء الآخرة، فقرأ في إحدى الركعتين بـ ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءةً منه].

هذا الحديث اشتمل على هدي النبي –ﷺ– في قراءته في صلاة العشاء فبعد أن فرغ من بيان هديه عليه الصلاة والسلام في القراءة في صلاة المغرب، ناسب أن يبين هديه عليه الصلاة والسلام في صلاة العشاء، وقوله : **[العشاء الآخرة]** لأن صلاة المغرب تسمى العشاء أيضاً ولذلك إذا أرادوا العشاء يقولون العشاء الآخرة، والدليل على تسمية المغرب بالعشاء قوله عليه الصلاة والسلام : ((إذا حضر العشاء والعشاء فابدأوا بالعشاء قبل العشاء)) والمراد هنا: صلاة المغرب؛ لأنها تحضر حال فطر الصائم من صيامه فأمر النبي –ﷺ– أن يبتدئ بفطره قبل أن يؤدي صلاته .

وقوله : **[كان النبي ﷺ في سفرٍ]** السفر في لغة العرب المراد به: الظهور، يقال : أسفر الصبح: إذا اتضح وبان ضوءه، ومنه قولهم : أسفرت المرأة عن وجهها إذا كشفته وظهر وبان، وسمي السفر سفراً؛ لأنه يسفر عن وجه الإنسان، يسفر عن وجهه في أخلاقه وقوة تحمله ونحو ذلك من الأمور التي لا تظهر إلا عند الشدائد، ولذلك روى البيهقي عن عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– أنه جاءه رجل يريد أن يشهد في قضية فقال له عمر –رضي الله عنه– : « إني لا أعرفك فاذهب فأتني بمن يعرفك ». أي: ائتني بمن يزكيك للشهادة؛ لأن الشهادة لا تقبل إلا من العدل، والقاضي لا يحكم بالشهادة على الخصم إلا إذا زُكي الشهود لقوله تعالى : ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ فأتى برجل يزكيه فقال له عمر –رضي الله عنه– للمزكي : « هل تعرف الرجل ؟ قال : نعم أعرفه بالخير والصلاح، قال : هل هو جارك الذي تعرف به مدخله ومخرجه ؟ قال : لا، قال : هل عاملته بالدينار والدرهم الذي يعرف به صدق الإنسان من كذبه ؟ قال : لا، قال : هل سافرت معه ؟ قال : لا، قال : اذهب فإنك لا تعرفه ».

فالسفر يسفر عن وجه الإنسان وفيه تُختبر الرجال ويُعرف الإنسان الصابر الجلد المتحمل، وقيل سمي السفر سفراً من الظهور؛ لأنه أصل مادته؛ والسبب في هذا: أن المسافر إذا أراد أن يسافر خرج عن العمران والمدن إلى الخلاء فأصبح ظاهراً عن العمران.

وقوله : [**كان النبي ﷺ في سفرٍ**] يدل على كمال شفقته وكذلك لطفه عليه الصلاة والسلام ورحمته بأصحابه؛ لأنهم في السفر يتحملون المشقة والعناء حتى قال ﷺ : ((السفر قطعة من العذاب)) فخفف عليهم في صلاته وخفف عليهم في قراءته؛ لأن السفر مظنة التعب والنصب .

وقوله رضي الله عنه وأرضاه : [**فسمعته يقرأ في الركعة الثانية**] يعني: من صلاة العشاء [﴿ **وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ** ﴾] وهي من قصار المفصل على قول ومن أوسط المفصل على قول، وتوضيح ذلك:

أن العلماء –رحمهم الله– لما حدوا أول المفصل على الأقوال التي ذكرناها وسبقت الإشارة إليها اختلفوا في أوسط المفصل وقصار المفصل فقال بعضهم : من الحجرات إلى المرسلات هذه كلها من طوال المفصل، ومن المرسلات إلى الضحى أوسط المفصل ومن الضحى إلى آخر القرآن قصار المفصل.

وقال بعض العلماء : من الحجرات إلى والسماء ذات البروج طوال المفصل ومنها إلى الزلزلة أوسط المفصل ومن الزلزلة إلى آخر القرآن قصار المفصل، والتين إذا قلنا إن قصار المفصل يبتدئ من الضحى فالتين تكون من قصار المفصل فيكون دليلاً على مشروعية قراءة قصار المفصل في صلاة العشاء كسورة التين وسورة التكاثر وسورة الزلزلة وسورة العاديات ونحوها من قصار المفصل.

وأما إذا قلنا إن قصار المفصل يتبدئ من الزلزلة تكون قراءته عليه الصلاة والسلام لهذه السورة دالة على مشروعية القراءة من أوسط المفصل، وهذا يقويه حديث معاذ؛ لأن حديث معاذٍ –رضي الله عنه وأرضاه– لما اشتكاه أهل قباء اشتكوه في صلاة العشاء فدله النبي –ﷺ– على أوسط المفصل لا على قصار المفصل فقد قال له: (هلا قرأت بـ ﴿ **سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى** ﴾ و ﴿ **وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ** ﴾ و ﴿ **وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ** ﴾) فهذا يدل على أوسط المفصل، ومن هنا: يقوى قول من قال بأنها تكون من أوسط المفصل، وينسحب الأوسط على هذا الوجه إلى الزلزلة فيكون أقوى على حديث معاذ –رضي الله عنه– ويعتبر من السنة أن يتخير لصلاة العشاء أواسط المفصل، وأما على القول الأول فإنه يختار لصلاة العشاء قصار المفصل .

يقول رضي الله عنه وأرضاه : [**فما سمعت أحسن صوتاً أو قراءةً منه ﷺ**] في هذه الجملة دليل على أمرين :

الأمر الأول : إتقانه عليه الصلاة والسلام لكتاب الله –عز وجل– .

والأمر الثاني : تحبيره للقرآن وحسن نغمته صلوات الله وسلامه عليه في التلاوة .

فأما بالنسبة لإتقانه للقرآن، فالمراد بذلك: إتقانه لحروف القرآن بإخراجها من مخارجها وقراءته باللسان العربي المبين الفصيح الذي تستبين به الحروف حتى كأن كل حرف على حدة، وهذا من أكمل ما يكون في قراءة القرآن: أن يتبين كل حرف ويأخذ كل صفة له من حقوقه ومستحقاته .

وأما الأمر الثاني: فهو حسن أدائه وحسن نغمته، فأما قيامه بالأمر الأول، فهو امتثال لقوله – سبحانه –: ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ فقد قيل إن ترتيل القرآن إعطاء التلاوة حقها وذلك بإخراج الحروف من مخارجها وأدائها باللسان العربي الفصيح المبين الذي لا يدخل فيه الحرف في الحرف ولا يُخرجه عن صفاته المعتبرة في القراءة، وأما الأمر الثاني – وهو حسن نغمته صلوات الله وسلامه عليه –: فإن الله –ﷻ– كمله وفضله وشرفه فكان عليه الصلاة والسلام يقرأ قراءة الصَّبا وهي قراءة الحزن إذا سُمع وهو يقرأ القرآن يتحزن، وقد ندب عليه الصلاة والسلام إلى ذلك في قراءة القرآن أن يقرأه الإنسان إما باكياً أو متباكياً وهذا من أبلغ ما يكون في القراءة فإذا سمع الإنسان القارئ ظن أنه يخاف الله أو يخشى الله ويتأثر بالآيات التي يتلوها.

وتحسين القراءة وتجميلها وحسن النغمة فيها أمر مندوب إليه شرعاً، والدليل على ذلك: أن النبي –ﷺ– أثنى على أبي موسى الأشعري –رضي الله عنه وأرضاه– حينما مر عليه في قيام الليل وهو يتلو القرآن فخشع ﷺ لتلاوته فلما أصبح قال : ((لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود)) فشبهه بذلك؛ لأن داود –عليه السلام– كان حسن النغمة بالزبور: ﴿ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ﴾فكان إذا تلا الزبور ترددت الجبال من جمال قراءته ودوت وراءه من جمال القراءة، وكذلك الطير ربما وقفت في السماء كما جاء في قصص بني إسرائيل التي تُحكى للعبرة والاتعاظ مادام أنها لا تعارض الشرع.

فكان عليه الصلاة والسلام أعطي هذه النعمة العظيمة، فقال له عليه الصلاة والسلام : ((لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود)) وهذا يدل على أن من أعطي حسن النغمة في كتاب الله فقد أوتي الفضل؛ لأن الإنسان إذا كانت قراءته مؤثرة تأثر في نفسه وأحب تلاوة القرآن وارتاح عند قراءته للقرآن وكذلك أيضاً تأثر غيره بسماع تلاوته فإن التلاوة الحسنة والترتيل الجميل الذي لا تنطع فيه ولا تكلف إذا أعطى الإنسان فيه القرآن حقه فإنه يؤثر في نفس السامع.

ولذلك نص العلماء على ندب حسن الترتيل قال ﷺ وقد مر على عبدالله بن مسعود وهو يقرأ القرآن في الليل فوقف ينصت إلى قراءته قال عليه الصلاة والسلام : ((من أراد أن يقرأ القرآن غضاً طرياً كما نزل فليقرأه بقراءة ابن أم عبد)) وعليه حُمل قوله عليه الصلاة والسلام : ((زينوا أصواتكم بالقرآن)).

وقوله عليه الصلاة والسلام : ((من لم يتغن بالقرآن فليس منا)) قيل المراد به: الاستغناء، أي: من ظن أن غيره أفضل منه فقد ازدرى نعمة الله –ﷻ– عليه، وقيل التغني تحبير الصوت وحسن النغمة والأداء، وعلى

هذاك فإن ثناء البراء –رضي الله عنه– على قراءة النبي –ﷺ– وأنه ما سمع أجمل منها ولا أحسن منها يدل على أن السنة والهدي للمسلم أن يحسن تلاوته لكتاب الله –جل جلاله–، ويمكن للإنسان أن يصل إلى ذلك بفضل الله – عز وجل– ثم بالأخذ بالأسباب خاصة إذا تلقى القرآن عن العلماء الذين هم أئمة في القراءة ويُرجع إليهم في هذا الشأن فإن هذا مما يعين على ضبط القرآن وإتقانه، لكن المبالغة في النغمة والتكلف في النغمة أو تقليد الأصوات والمبالغة فيها كل ذلك من المكروه فإن أخرج الحروف عن صفاتها ومستحقاتها فهو محرم؛ لأنه إذا أخرج القرآن عن طبيعته لحن في الحرف لحناً ربما أخرجه عن حقيقته وأخرج الكلمة عن معناها، ومن هنا قالوا : يجوز التغني بالقرآن وتزيين الصوت به بشرط أن لا يمنع عن الحروف حقوقها وأن لا يلحن لحناً يخرجها عن صفاتها التي لها. قال الناظم :

اقرأ بلحن العُرب إن تجود وأجز الألحان إن لم تعتد

أي: أجز حسن النغمة في القرآن بشرط أن لا يعتدي القارئ على الحروف في صفاتها ومخارجها.

وعلى من أوتي حسن النغمة في كتاب الله –عز وجل– أن يعلم أن العبرة بالتأثير وأن هذه النغمة الجميلة التي وهبه الله –عز وجل– إياها في صوته نعمة تحتاج إلى الشكر ومن شكره لنعمة الله –عز وجل– عليه أن لا يغتر بذلك وأن لا يبالغ في التنغم بل عليه أن يقرأ القرآن خاشعاً متخشعاً مخلصاً لوجه الله –عز وجل– لا يلتفت إلى مدح المادحين ولا ثناء المثنين فيكفيه أن يثني الله –عز وجل– عليه فإن الله –سبحانه وتعالى– يحب من عبده أن يحسن تلاوة كتابه (ما أذن الله لشيء كإذنه لنبي يقرأ القرآن) فالأنبياء هم أعلى الأمة وأعلى الناس في حسن قراءتهم للكتب وقيامهم بحقوق التلاوة لفظاً وكذلك عملاً صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .